يوميات نائب في الأرياف

للأستاذ توفيق الحكيم

١٩ اكتوبر . . . .

رأيت أن الطريق الوحيد بعد ذلك أن أبحث عن ذلك الخاطب الذى كان قد تقدم للبنت ريم . ولكن كيف نستدل عليه ونحن لا نعرف حتى اسمه ؟ فلنطلب إذن إلى المركز أن يأتى إلينا بأحد الجيران لعله يعرف الخاطب . وليكن الجار امرأة ؛ فان المرأة بطبعها فضولية ثرثارة . فما من جارة لا تعرف أسماء الخاطبين والمخطوبات فى الحارة .

ولكن هل أستطيع الآن أن أكلف المركز باحضار شاهد أو بالبحث عن مجرم ؟ إن السياسة وحدها هى كل شىء اليوم فى المركز ؛ ولن أجد خفيرا يلقى بالا إلى أوامرى الساعة . فلنتصل نحن مباشرة

وحيدة . كان يجب ألا يفارقها فى تلك الليلة العصيبة . وبدت له كأنها غارقة فى أفكارها وهمومها . ألا ليتها تسمعه صوتها الموسيقى الحنون ، أو حتى تردد اسمه

بيد أنها كانت صامتة صمت القبور

وفزع الملك لحركة مباغتة . وفتح باب سرى فى الجدار : باب سرى كان يظن أن أحداً لا يعلم به سواها ؛ وداف منه رجل وانتصب أمامها . فرفعت إصبعها إلى فمها تومئ إليه بالصمت . ثم ألقت بنفسها أخيراً بين ذراعيه :

— هل عدت أخيراً ؟ كم أنا سعيدة ! عفواً يا حبيبى ! لقد كان على أن أفعل شيئاً وأنا جائية بجوار فراشه . لذلك أمسكت بيده بين يدى وهو يجود بنفسه . لقد ملكنى الخوف وأنا أنتظرك هنا وحيدة مع نفسى . ظننت روحه تأتى فتفزعنى . ولكن لا ، لقد ذهب إلى حيث لا رجعة . سترفرف علينا السعادة بأجنحة من الحب بعد الآن

ونزعت خاتمها ولثمته ثم قدمته إليه وهى تبكى

وعند ما دقت الساعة تعلن انتصاف الليل نهض الحراس من نومهم فرأو الملك راقداً قد تغشاه جلال الموت . غير أنهم لمحوا تغييراً عظيما اعترى محياه ، فقالوا فيما بينهم :

يجب ألا ندع الملكة تراه ثانية

ترجمة : محمد عبد الفتاح محمد

بالقرية ونطلب إلى النقطة أن ترسل إلينا المرأة المطلوبة . وأمرت فى الحال حاجبى فتقدم إلى آلة التليفون وأمسك بالبوق وجعل يصيح أكثر من ربع ساعة :

— يانقطة ! يانقطة ! ردى على يانقطة ! البك الوكيل جنبى يا نقطة !

ولكن النقطة غضت طرفها الناعس عنا ولم تكلف نفسها عناء الرد علينا ؟ واشتد غيظ الحاجب وجعلت يده تحرك جرس التليفون بقوة كادت تخلعه . وهو من طراز تليفونات المراكز التى لا توصل الكلام بين المتكلم والمخاطب حتى ينقطع نفس الاثنين من كثرة الصياح ، وحتى ينقطع حبل الحديث مائة مرة ومرة تشتبك خلالها حبال أحاديث أخرى من بلاد أخرى ومن مصالح مختلفة . فبينما يدور الكلام حول إرسال متهم إذا صوت يجيب فى مسألة متعلقة بتفتيش الرى وبالفتحات ونوبات الترع ، وإذا آخر يتكلم فى أنفار القرعة ويطلب طلبات فى لهجة الأمر والنهى . على أننا اليوم لا نلقى ردا على الاطلاق . ويد الجرس فى يد الحاجب لا يقف لها دوران ، كأنه يدير طاحونة بن . ولا ينفك يصيح تارة مهددا وتارة متوسلا :

— أنا فى عرضك يانقطة ! كلمة واحدة يانقطة ! إخص عليك يانقطة ! ردى على يا ...

فما تمالكت أن قلت :

— شىء لطيف ! ناقص تركع وتقول : « ردى على ياروح قلبى ياست هانم يا نقطة ! »

— يظهر ياسعادة البك أن النقطة خالية من حضرة اللاحظ والبلوكامين والكل كليلة ...

— النقطة خالية ...

— أيام انتخاب ياسعاده البك

— والعمل ؟

— نتصل بدوار العمد ونطلب النفر والحرمة

— اتصل

واستطعنا آخر الأمر أن نظفر بحضور الحرمة الجارة مع « مخصوص » وكان ميعاد غدائى قد حان . وكان قد أجهدنى العمل المعتاد بالمكتب . أعنى تحقيق التزويرات وقضايا الربا الفاحش والتلبس الوارد من المركز من « إيراد » اليوم ، وأكثره الآن محاضر « تشرد » ضد الأهالى غير الموالين للحكومة القائمة . وما أسهل هذا السلاح وما أقواه فى يد رجال الادارة ! فان كل نجل كريم من أنجال الأعيان يمكن اتهامه بأنه لا يحترف صناعة ، ويمكن بذلك القبض عليه وحبسه أربعة أيام باذن النيابة لحين التحرى عنه وطلب صحيفة سوابقه من مصر . وأين هو وكيل النيابة الذى يعارض المركز اليوم فى إصدار أوامر الحبس ؟ وقمت للغداء بعد أن أصدرت من هذه ماشاء الله والمركز . وعدت بعد الظهر لسؤال المرأة ، فتكلمت كلاما كثيرا لم أخرج منه إلا أن الفتى الخاطب يدعى « حسين » وهو ليس من أهالى البلدة بل من بلدة مجاورة

— اسمه حسين إيه يا وليه ؟ فيه ميت حسين فى البلد . لقبه إيه ؟

— ما اعرفش نقبه ياسيدى . البنت قالت اسمه « حسين » وأنا مالى بقى أسأل عن أصله وفصله . أنا حرمة غلبانه فى حالى ، بعيد عنك ما أكره على إلا كتر الكلام . أنا طول عمرى يا سيدى فى الحارة ما أحشر نفسى فى كلام ولا فى سؤال . وأنا مالى قالوا يا داخل بين البصلة وقشرتها ...

— اسكتى قلبت دماغى فى الفارغ ، داهية تقلب دماغ اللى طلبك . يعنى لو عرضنا عليك الولد تعرفيه ؟

— أعرفه يا سيدى . يا ندامه ! وأنا بقى خلاص اتعميت ... أنا كنت اسمَ الله على مقامك ...

— كفاية ... انت واحدة ولله الحمد لا تحبى كتر الكلام ولا ...

كتر كلام ... أبدا وحياة شرفك ... أنا بعيد عنك من يوم ...

— بس !

وناديت الحاجب ، وأمرته باخراج المرأة واجلاسها فى الدهاليز بجواره تنتظر حتى تطلب . وكلفته بمخابرة البلدة التى فيها الفتى ليحضروا الفتيان الذين يسمون فيها باسم « حسين » ممن تنطبق أحوالهم وأوصافهم على ما لدينا من المعلومات . وجلست أنتظر ساعة وأنا أفكر فى قيمة هذا العرض « القانونى » . إنى لا أثق كثيرا بفراسة هؤلاء النسوة . وما زلت أذكر قضية قتل أتينا فيها بزوجة القتيل وعرضنا عليها التهم بين أشخاص آخرين جئنا بهم عفوا من قاعة الجلسة المدنية المنعقدة فى صباح ذلك اليوم . وكان من بين هؤلاء شخص منكود الطالع أتى يحمل مستندات شركته فى جاموسة ويسمع الحكم على خصمه بالطابات . فاذا هو يجد نفسه قد زج بين الأنفار الذين أخذوا من قاعة الجلسة ليقفوا فى صف طويل فى قاعة النيابة وقد أخرج عليهم وكيل النيابة امرأة شمطاء ، وأمرها أن تبرز القاتل من بينهم . فتفرست المرأة فى الوجوه وهى تدق صدرها وتدعو بالويل على قاتل زوجها ، ودنت من القاتل الحقيقى ومرت عليه مر الكرام ، ووصلت الى ذلك المسكين صاحب المستندات الذى ليس له فى الثور ولا فى الطحين ، فلكمته فى صدره لكمة كادت تردبه وصرخت بالصوت :

— غريمى

فأرتج على الرجل وقد فوجىء ثم تمالك وقال :

— يا ستى أنا أعرفك ؟

فلم تسمع اليه المرأة ومضت تولول :

— غريمى دمى . غريمى

والتفت الى الرجل كالمستجير :

— يا سيدى البك . انهضنى . أنا عمرى لا شفتها ولا قابلتها ...

فقام وكيل النيابة وهو أنا ولا فخر بأسئلته « التجارية » المحفوظة عن ظهر قلب ، المعتبرة من « روتين » العمل التى إذا لم تسأل أحصتها الرياسة علينا هفوة ، وإن لم يكن هناك محل لتوجيهها ، أسئلة سخيفة لا تعنى شيئا فى ذاتها ولكن القضاء يعتبرها محرجة مضيقة على خناق المجرم :

— بينك وبينها ضغائن

— أبدا يا سيدى ولا أعرفها

فتمهلت قليلا لكى ألقى ذلك السؤال الذى يلقيه كل وكيل نيابة وكل قاض فى ثقة واطمئنان كأنما يلقى يده على الدليل المبين :

— إذن ما سبب ادعائها عليك ؟

— أنا عارف ! مصيبة على الصبح وارتمت على

— احجزه يا عسكرى

— يحجزنى ؟ أنا يا سيدنا البك لى قضية مدنية تحت . اعمل معروف خلينى أروح لشغلى

وألقى الرجل فى الحبس الاحتياطى . ونوديت

قضيته المدنية فلم يحضرها بالضرورة فشطبت دعواه وجلس الرجل القرفصاء على الاسفلت ومستنداته فى يده يفكر فيما آل اليه حاله بلا مبرر ولا جريرة

تذكرت ذلك وقلت فى نفسى : « كلا لا ينبغى أن نبالغ فى قيمة « العرض القانونى » إن هؤلاء الفلاحين بأميتهم التى أكلها الصديد منذ الطفولة ، ومدارسهم التى تركت عملا على مدى حكم ولاة من جميع الأجناس لا يمكن أن يركن اليها فى حكم أو تمييز . وهل هناك أعجب من « عرض قانونى » آخر قمت به فى قضية تزوير ، وكان المتهم « أفنديا » وقد وضعته بين أشخاص مطربشين وجئت بالمجنى عليه الفلاح وأمرته باخراج « عريمه » من بين هؤلاء ، فتفرس فى الوجوه لحظة ثم ترك الصف بأكمله ووقف تجاهى أنا وكيل النيابة المحقق وأطال النظر فى وجهى وقد بدت فى عينيه علامات الشك الذى سيتبعه اليقين أنه وقع أخيرا على المجرم الحقيقى ، وكان حاضرا عندى وقتئذ أحد كبار مفتشى النيابات زائراً وقد أراد أن يشهد عملية العرض . فهالنى أن يطيل الرجل شكه فى أنا فيبدو المفتش رأى لا أرضاه ، فأشهرت الفلاح وأمرته أن ينظر فى الصف الذى أمامه ويخرج منه المتهم . فكان اللعين يمر بالصف سريعا سريعا ويعود فيلقى بصره على ويفحصنى من رأسى حتى إخمص قدمى فحص المشتبه المستريب . ولن أنسى اضطرابى يومئذ . وقلت فى نفسى : « الله يكون فى عون المعروضين » ولم اجد عند ذاك مندوحة من أن أنهى عملية العرض فى الحال قائلا فى سرعة : « لم يستعرف المجنى عليه على أحد » وأمرت الحاضرين بالانصراف فخرج الرجل وهو ما زال يختلس النظر . كلا إن تلك الاجراءات التى تتبع فى أعمالنا القضائية طبقا للقوانين الحديثة ينبغى أن يرعى فى تطبيقها عقلية هؤلاء الناس ومدى إدراكهم وقدرتهم الذهنية

وحضر المطلوبون وأوقفتهم فى صف طويل وأدخلنا المرأة فتقدمت وهى تقول :

بسم الله الرحمن الرحيم

ولم أترك لها مجالا للثرثرة . فقد استهوتها :

— كلمة ورد غطاها ياولية . من فى الحاضرين الخاطب ؟ ...

فدنت من أقرب الفتيان إليها ونظرت إليه بعينيها « العمشاء » نظرة « المرضحالجى الأضبش » إلى « عريضة » يرفعها فى يده حتى تمس أنفه . وقالت له فى صوت خافت تريد ألا يصل إلى مسامعى :

— أنت « يا ادلمدى » مش اسمك حسين ؟

فأدركت فى الحال مبلغ علم المرأة بما انتدبت لأجله وقلت لها فى شدة :

— كل الجدعان اللى قدامك ياوليه اسمهم حسين

— قطيعة !

لفظتها المرأة فى صوت الواقع فى حيرة من أمره . ثم اتجهت الى التالى وسألته :

— انت منين ياجدع انت ؟

فأجابها الرجل فى صوت هادئ :

— من امبابة يا ستى !

فقالت على الفور فى لهجة الجد :

— دى بلد الحمير يا جدعان . دا كان مرة « ادلمدى » جوزى اشترى منها حمار ...

فلم أتمالك أن صحت :

— أخرجى يا « قرشانه » يا « وحشة » يا قليلة الحيا ... ضيعت وقتنا ، نهار بحاله

إخص على دى شهود ... !

قلتها من غيظى وأنا ليس من عادتى « القباحة » ولكن هذه المرأة التى أفهمتنى أنها رأت الخاطب بعينها وتعرفه إذا حضر أمامها قد اتضح الساعة انها لا تعرف الا اسمه . وحتى هـذا الاسم الابتر « حسين » من أدرانا إذا كان هو اسمه الحقيق أو انها كلمة ألقتها على عواهنها هذه المرأة «الهجاصة» وسألت الحاضرين عن الخاطب فلم أجد بينهم من يفهم غرضى أو من يعرف شيئاً عن الموضوع . فصرفتهم . ولم أكد أخلو الى نفسى وأفكر فيما ينبغى عمله بعد ذلك ، حتى فتح الباب ودخل على مساعدى آتياً من البندر حيث كان يترافع فى قضايا الجنايات التى أحلتها عليه . وقد رأيت وجهه نضراً مشرقا . وابتدرنى قائلا :

— البنادر هى النعيم . يا خسارة رجعنا بسرعة إلى جحيم الريف

— أخذت أحكام براءة

— أنا نزلت فى أحسن بانسيون وصرفت ضعف بدل السفرية

— رد على سؤالى . القضايا عملت فيها إيه ؟

فوجم الشاب قليلا ، ولم يكن ينتظر منى الكلام فى العمل والجد منذ اللحظة الأولى . وكان يحسن بى فعلاً أن أكون به لطيفاً رقيقاً ولكن القضية التى فى يدى أتعبت أعصابى ، أو لعل شيئاً من الحسد الخفى قام فى نفسى إذ رأيت هذا الفتى عائداً كالزهرة المشرقة من ذلك النعيم الذى يقول عنه بينما أنا راسف فى أغلال الوظيفة غارق فى عمل ذى مسؤولية لا يقف ولا ينتهى . وتنبهت مع ذلك لحشونتى وأردت أن أبتسم وأن أتكلم فى غير القضايا . ولكن المناسبة كانت قد فاتت . ومضى المساعد يحدثنى عن القضية التى ترافع فيها قائلاً إن المتهم فيهـا قد حكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة لأنه قتل رجلاً فى نظير مبلغ خمسة جنيهات . فالقاتل رجل سودانى بدوى قوى الجسم يحترف إزهاق الأرواح . وقد اتفق معه أحد الفلاحين على قتل خصم له وحررت الكمبيالة بثمن « الروح » . وانطلق ذلك المحترف حاملاً بندقيته كما يحمل الفنان قيثارته ، ووقف بهـا تحت نافذة المسجد حتى دخلت « الروح » الغالية وسجدت تصلى فأرسل إليها الصياد من بين قضبان النافذة قبلة واحـدة ذات صفير من « ماسورة » أرغوله الجهنمى كانت فيها الكفاية . وهى صناعة تحتاج الى ثبات يد ، كصناعة النجارة ؛ فالنجار الحاذق يضرب المسمار ضربة واحدة لا عوج فيها ولا ميل ، تصيب اللوح فى الصميم . وكان مصير هذا الدم الضياع كالمعتاد ومآل القضية البراءة ، لولا خلاف دب بين البائع والمشترى . فالقاتل سلم « البضاعة » حاضرة . ولكن المشترى مطل بالثمن . ولم يطق القاتل المحترف صبراً على هذا « الزبون » المتوقف عن الدفع فصاح به وسط الجلسة غير مراع حرمة قضاء ولا قضاة ...

— عايزنى أقتله لك لوجه الله ؟

وترك « زبونه » والتفت الى هيئة المحاكمة :

— اشهدوا يا ناس على قلة الشرف . أنا أستحق الشنق ؟ اللى ما قبضت مقدم . هو يخرب البيوت إلا الشكك

وضحكت قليلاً أنا ومساعدى . وقد أبديت له ملاحظتى على هذه التجارة أو الصناعة المعروفة فى الريف . وهى الاستئجار على القتل . ان الفلاح المصرى يلجأ كثيراً إلى محترف يقتل له . كما كان بعض ملوكنا الأقدمين يلجأون الى الجنود المرتزقة . أهو نقص

خلق فى الفلاح يضاف الى أمراضه الجثمانية والفكرية والاجتماعية الكثيرة . أم انها قلة مقدرة وضعف ثقة بالنفس منشؤها اشتغاله بأعمال العبيد من قديم فى الأرض والزراعة وترك الفروسية والجندية للمغيرين وأقربهم بنا عهدا الاعراب والاتراك . ان الملاحظة على أشهر مخترق القتل فى الأرياف انهم من دم أجنبى . أم ان الفلاح يحب السلام ويأنف أن يزاول سفك الدماء بيده التى تبذر البذر وتخرج منها الخير . لست أدرى . إن الأمر يحتاج الى درس خاص . ويكفينا نحن المتصلين بهذه المسائل أن لا نمر عليها بغير ملاحظة . وقد أفهمت مساعدى أن مهنتنا سخية بمادة البحث والملاحظة . وإنه طول حياته بها لا ينبغى أن يسير مغمض العينين . فهى خير مهنة تكون الرجل تكوينا صحيحا . فوكيل النيابة إن هو إلا حاكم صغير فى مملكة صغيرة إذا فهم كل شىء فى هذه المملكة ، ولاحظ كل شىء ودرس الناس وطباعهم وغرائزهم ، فقد استطاع بعد ذلك أن يعرف تلك المملكة الكبيرة التى هى دولته . بل استطاع أن يفهم ذلك العالم الأوسع الذى هو « الانسانية » . ولكن كم من رجال النيابة أو القضاء يستطيع أن يلاحظ ان قوة الملاحظة هى أيضاً هبة عظيمة لا يملكها كل الناس . وقد وعى مساعدى هذا الكلام وهو على قسط وافر من الذكاء . فأطرق قليلاً ثم رفع رأسه وأخبرنى أنه لاحظ أمراً استوقف تفكيره فى جلسة الجنايات ، ذلك أن المستشارين ينطقون بادئ بدىء بالحكم . ثم ينصرفون بعد ذلك الى كتابة الأسباب . والمنطق الذى يتصوره هو أن يكون الأمر على العكس . ملاحظة قيمة .

ولقد أخبرنى فعلا أحد المستشارين من أهل الصراحة انه بعد أن نطق ذات مرة بالحكم فى جناية خطيرة ورجع ليلا الى مكتبه وورقه وملفات القضية ليكتب الحيثيات ، وقع نظره على أقوال وعبارات فى محضر جلسة اليوم ، وفى المحاضر السابقة ، وفى تحقيق النيابة استخلص منها تفكيره الهادىء الرزين فى ذلك الليل الساجى ما لو عرفه قبل النطق بالحكم لكان حكمه قد تعدل وتبدل . ولكن ما العمل الآن وقد تم النطق بالحكم وما من سبيل الى تغييره بأى حال ؟ لا يستطيع أن يصنع شيئاً . فجعل همه تلك الليلة أن يستخرج من الأوراق جميع الأسباب التى يبرر بها النطق بالحكم . وكم من الحيثيات الطويلة تكتب تبريراً وتدعيما لحكم سريع مضى النطق به ، لا تفسيراً للعدالة ولا تمحيصاً لحقيقة ...

(يتبع) توفيق الحكيم

قلم خضير

صندوق بريد ١٠٥٧

برليشة ذهب عيار ١٤

مضمون ٣ سنوات

تستعمله الحكومات الشرقية

مكتبة ومطبعة خضير بشارع عبد العزيز بمصر